جُمان يا جُمان

بقلم هناء كرم

قالت لها أمها : هيا يا جُمان، كما أوصيتك لديك سبع دقائق فقط للحمّام.
احتجَّت جُمان قائلةً: الحمام أيضاً بالقطارة؟ أوف ما هذه الحياة؟ كل شيء بمقدار محدود، الأكل والبوظة والعصير والحمّام؟ حتى النوم، فأنا لا أستطيع أن أنام في غرفة لوحدي ، عليّ أن أنام مع شقيقتيي سارة ونور، ما هذا؟ لقد مللتُ هذه الحياة.

قالت الأم: جُمان! لن نعود للقصة ذاتها من جديد؟ فكري بالناس الذين لا مأوى لهم مثلك وقد شردتهم الحرب من بيوتهم، على الأقل لديك غرفة مع شقيقتيك، ولنا حمامنا المستقل، الماء قليل نعم، ويجب أن نستعمل أقل ما يمكن منه وهذا عدل.
- أي عدل يا أمي، أي عدل ؟ أريد أن أعود الى بيتنا، أنا متعبة جداً.
صمتت الأم ، فلا إجابة لما تقول ابنتها،
الأم أيضاً تريد أن تعود الى (بيتنا) وقد تعبت أكثر من ابنتها جمان.
كلهم تعبوا وكلهم يرددون نريد العودة الى بيتنا. لكن أين بيتنا أو قل أين الطريق الى بيتنا؟
فتحت جُمان الماء وبدأت حمامها ونظرت كارلا الى الساعة لتتأكد كم من الماء ستستهلك جُمان.
جديدةٌ هذه المراقبة، لكنها اضطرارية فقد سمح لهم صاحب الفندق باستعمال المياه وطلب منهم التقنين وقال : إذا ساعدتموني أساعدكم.

استلقت على السرير بانتظار جُمان وهي تراقب عقارب الساعة ، وغلبها التعب والقلق.

ها هي تسمع من بعيد ابنتها الكبرى سارة، تلقي محاضرة اجتماعية على أختها الوسطى نور وتسألها الانضمام الى صفوف الشبيبة التي ستتجمع بعد ساعة للذهاب الى الكروم والحقول لقطف الفواكه وتجميعها ثم ارسالها الى من يحتاجها، بدل أن تموت في أرضها فلا عمال ولا مزارعين والفواكه تموت على أمهاتها، ونور غير مهتمة بكل ما يجري حولها، وكأنها بَنت جدراناً عالية حولها، تجلس طول النهار وأمامها كتاب تقرأ أو لا تقرأ لا يهم، لا تسأل ولا تجيب، تدعوها للطعام فتأكل أقل ما يمكن.
سنواتها الأربع عشرة تضاعفت، تستمع للجميع وتحمل الهمَّ صامتة، تطلب منها عملاً فتقوم به صامتة، كانت دوماً هادئة ، تدرس بهدوء تفرح بهدوء وتغضب بهدوء، أما صمتها الحالي فقد تعدى الهدوء بكثير ، وسارة دوما غاضبة من هدوئها فكيف وهي الآن أمام صمت مطبق، سارة بحيويتها الفائقة وحركتها الدائمة كانت دوماً القطب الموجب الذي يحرك قطب نور السالب فتجرها الى اللعب والمناقشة والحوار والقتال والمغامرة، هي التي تدفعها للتعبير باستثارتها. أما اليوم!!

اليوم ومع كل ما قالت لم تستطع أن تحرك فيها ساكن، يبدو أن نور متأثرة جداً بما حصل وتراجع اهتمامها بما يدور حولها وأطبق صمتها، بدأت سارة تصرخ من غيظها ويعلو صوتها متهمة أختها باللامبالاة والضعف والأنانية والتبجح. فإن كانت فعلاً متأثرة بما يحدث وإن كانت تهتم لكل هؤلاء الأطفال والعائلات التي تشردت دون مأوى ومأكل فعليها أن تتحرك وتفعل شيئاً، عليها أن تفكر أصلاً بما يجب أن تفعل ولكن بما أن الآخرون فكروا فلتساعدهم اذن، لتساعدهم بما فكروا وتشاركهم العمل والتعب لتحس أنها جزء من هذا الوطن الذي يعاني، فلتعاني أيضاً معهم . معاناتها الصامتة لن تفيد أحداً ولن تفيد بشيء فلتتحرك وتقوم بشيء مفيد.

تمادت سارة في حدة نقاشها وكأنها تفرغ ما في نفسها من اضطراب وغضب ، فالاضطراب ينفث الغضب في الهواء. لهيب الحرب المشتعل يستعير في الأجواء قلقاً وخوفاً. هروبهم من البيوت واختلال توازن استقرارهم غلفهم بالغضب.
كان غضب سارة يشتد وهي ترى نور مستغرقة في الصمت وكأنها لا تسمع ولا ترى فرفعت كفها لتصفع أختها وكأنها تريد ايقاظها من غيبوبتها، وتنتفض نور لتدافع عن نفسها وعن صمتها وتبرهن لسارة أن كل ما يفعلونه هباء، كل ما يقولونه هباء، كل ما نسمع في التلفزيون هباء وكذب، كيف نصدق ما يقوله هذا وذاك،
وختمت بقولها: أنا لا أريد أن أكون جزءاً من لعبة الآخرين.

نسمعهم يقولون يجب أن نحرر بلدنا ونقاتل اسرائيل عدونا الأكبر، وعندما يحاربها الثوار يقولون لا! لا! هناك طرق أخرى للتفاوض ، في التلفزيون ، الشعب بل الشعوب كلها في قتال مع اسرائيل ، والحكام صمت مطبق ، لا أحد يحرك ساكناً. الغرب ليس صامتاً بل مسانداً لاسرائيل لأنها على زعمهم تدافع عن نفسها، لا يهم أنها تأخذ أرضاً ليست لها وتعتقل وتختطف المئات دون سبب ظاهرودون محاكمة، هذا مشروع لها، لأنها تدافع عن نفسها وعندما يُخطف لها جنديان وبقصد واضح وبعملية واضحة تقوم الدنيا ولا تقعد وتهدم البلد كلها والجميع يدعمها ، كيف تريدينني أن أتحمس وأنا أرى أن لا أهمية لي إن عشت أو مت، إن دافعت عن حقوقي أو بلدي أو لا !! المهم ما تعتقده الدول الكبرى والمتآمرون من بلدي معهم وما يركزهم في مراكزهم ويملأ جيوبهم وأنا وأنت وبيتنا وجارتنا لا يهم أبداً.

وتتابع سارة النقاش لتتهم أختها بالانهزامية والتراجع والتخاذل، والأم لا تصدق اذنيها وتتساءل من أين تعلمت البنات كل هذا الكلام؟ هذا كلام جرايد وأخبار فضائيات، ما زالتا صغيرتين على كل هذا، خاصة وأنها كانت دائماً تحاول مع والدهما أن تبعدانهما عن كل هذه التفاصيل لأنها لا تؤدي الى مكان.

دخل الوالد على عجل سامعاً أصوات المناقشات الحادة، وهي .. تتابع المشهد أمامها، ترى كل شيء لكنها عاجزة عن الحركة والكلام ، قدماها ملتصقتان بالأرض وشفتاها مطبقتان.

قال الوالد: ما هي المشكلة ولماذا أصواتكما عالية؟
- يا أبي أريد لنور أن تتحرك فهذا البرود غير معقول يجب أن نفعل شيئاً ، لا نستطيع أن نبقى هكذا دون عمل أي شيء مهما كان بسيطاً.
- لكن يا ابنتي ماذا باستطاعتكم أن تفعلوا ؟؟
- لقد تشاورنا مع شبيبة الضيعة البارحة في المركز وقررنا الخروج الى المزارع والكروم لقطف الفواكه وتوضيبها في صناديقها وتوزيعها. ومن ثم نفكر بشيء آخر لنفعله لا يمكننا أن نبقى مكتوفي الأيدي أو فقط نتسلى وأبناء شعبنا يقتلون ويتشردون ويتألمون.

- مهلاً مهلاً، الحرب دائماً هكذا صعبة وقاسية، لكن ماذا لو أصاب القصف العشوائي منطقتنا؟ حتى الآن نحن آمنون ولكن من يدري؟ الحرب مجنونة وأعداؤنا مجانين.

وتقول سارة بانفعال كبير: وهل نبقى في البيت خوفاً من ذلك؟ اذن ربما يقصفون هذا المكان الذي هربنا اليه وهم لا يهمهم مناطق مدنية أو عسكرية ،
وتتحمس نور وتقول: قل لها يا أبي ، لا فائدة من كل ما يفعلون، فربما نكتشف بعد حين أن هذه المجموعة تستعمل الشباب المتحمس لمساعدتهم في قطف الفواكه لبيعها وليس لتوزيعها كما يدَّعون.
- لا تكوني متشائمة لهذا الحد!
- الحقيقة يا ابنتي أثبت العالم بكل أسف أننا نكتشف خيانة الجميع بعد حين.
انظري الى جميع القادة ، الى جميع القادة العرب بكل أسف . يصيبك الاحباط حين تنظرين الى ردود فعلهم ، أنت تذكرينني بالأيام الخوالي ، منذ زمن بعيد حين تحمسنا وحاربنا ودافعنا ودفعنا بأنفسنا الى العمل الاجتماعي ثم الى الحرب. ومن ثم خُذِلنا واكتشفنا أنهم جميعاً كانوا متآمرين، يكذبون ولا أحد منهم يهتم بصالح البلد بشكل حقيقي، ومن كان منهم كذلك ضاع بين الجموع وجرفه التيار خارجاً . أقول ذلك وأنا في غاية الأسف.

وتعقب سارة: لكن يا أبي، يجب ألا نفقد الأمل ونبدأ دائماً من جديد، وهذا ما يفعله الأبطال هناك.

- أحس معك بالفخر أنهم يحاربون حقيقة، لكن انظري حولهم كيف يفسر العالم محاربتهم وشهادتهم، يعتبرونهم ارهابيين ويريدون نزع سلاحهم وكثيرون حولنا يعتبرونهم سبباً في خراب البلد وتدميرها وقيادتها الى حرب لا طائل منها لأنها أمام أقوى قوة في العالم.
وتخرج جُمان من الحمام لتنضم الى النقاش وتقول: كل ما أعرفه أنهم أبعدونا عن بيوتنا واضطررنا للهروب دون أن نأخذ أغراضنا ونحن الآن نعاني من شحٍّ في كل شيء ويجب أن نتحمل ونفكر بالمهجرين الآخرين الذين لم يكونوا محظوظين مثلنا واستطاعوا الحصول على شقة صغيرة في فندق بل افترشوا الحدائق والمدارس، يجب أن تمر أيامنا هكذا بانتظار انتهاء الحرب وأن نتحمل كل ما يحدث ولا نتأفف كما تقول ماما ونشكر الله، الجميع يشكر الله ويطلب منه الرحمة ولا أعرف لمن سيستمع الله، للمقاتلين أم للمهجرين أم لمن؟؟

- انتبهي لكلامك يا جُمان هذا حديث الكبار لا تتدخلي فيه.
- لكن يا أبي أريد أن أكبر أو بالأحرى لا، لا أريد أن أكبر ، فلا شيء أمامي يحمسني ، ويجعلني أتوق للوصول اليه. كانت الاجازة تغريني والسفر والراحة والاستمتاع معكم لكن بعد ما عانينا مما نحن فيه لا شيء في الدنيا يستأهل.
وتعود سارة للقول: اذن أظنك تشاركينني الرأي بأن علينا أن نفعل شيئاً لنثبت وجودنا ونحس أننا نفكر ونحاول لا أن نجلس بصمت وبلا حراك، ولنكتشف بعد حين ما قد نكتشف، على الأقل لا نتخاذل أمام أنفسنا، ونعرف أننا قمنا بما نظن الآن أنه صحيح، ما رأيك يا والدي؟ هل تأتي معنا؟

وتهب كارلا لتقول لهم: انتظروا، فإما أن أذهب معكم أو تبقون جميعاً هنا، يجب أن نبقى مع بعضنا فإن حدث شيء فليحدث لنا جميعاً ونموت معاً،
لكنها لم تستطع الحركة ولا الكلام قدماها مشلولتان وصوتها مكبوت لا يُسمَع.

وتحس كارلا بيد ابنتها على خدها قائلة:
ماما، ماما استفيقي ، لقد أنهيت حمامي، بأسرع مما طلبتِ، فقط أربع دقائق. ماذا بك هل نمت؟

وتستفيق كارلا من حلم النقاش وتنظر حولها لترى نور مستغرقة في قراءة كتابها وسارة جالسة بقرب والدها يتابعان الأخبار وتسأله:
بابا هل هناك ما يمكننا أن نقوم به هنا للمساعدة؟ أحسني أريد أن أثبت نفسي ولا أرى الأيام تمر دون فائدة.
ابتسمت كارلا بحزن وتساءلت في نفسها، هل تخبرهم بأمر الحلم أم أنها ضعيفة لدرجة لا تريد لبناتها حتى الخروج من الدار.

هناء كرم